القسم الثانى : (مع التفسير)

obeikan.com

obeikan.com

الفصل الأول
من أقسام القرآن الكريم (*)

قال الله تعالى :

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ * فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ * لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (١) .

في هذا الفصل :

- معنى مواقع النجوم : آيات القرآن ؟ أو النجوم والكواكب ومواقعها؟ أو يوم القيامة ؟
- هل هناك مناسبة بين النجوم والقرآن ؟
- المقسم عليه هو القرآن الكريم .
- لم جاء الاعتراض بين الصفة والموصوف ؟ وما قيمته ؟
- من الأغراض البلاغية للاعتراض .
- من بلاغة الاعتراض في القرآن الكريم .
- لم وصف القرآن بالكريم ، الذى هو اسم من أسمائه تعالى ؟
- ما هو الكتاب المكنون ؟ وهل هو المصحف أو الكتاب الذى بأيدى الملائكة في اللوح المحفوظ ؟ - ابن تيمية يرجح الثانى لعشرة وجوه .

(*) من كتابه « التبيان في أقسام القرآن » ، فصل : ٥٦ إلى ٦٠ .

(١) الواقعة : ٧٥ - ٨٠

obeikan.com

● القلوب الطاهرة المخلصة تفهم القرآن ، وغيرها لا .

● فائدة التأكيد والتقرير فى قوله تعالى : ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

● وما هو التنزيل ؟

● كيف استدلت السيدة خديجة - رضى الله عنها - بصفات الله ورسوله على صحة نبوة محمد ﷺ ؟ وهل استدلالها كان بالفقه الأكبر؟ أو بالفقه العملى ؟ .

❊ ❊

opeikan.com

● ما قبل التفسير .

يجب أن نعرف أن من ميزات القرآن الكريم على غيره ما يلى :

- بلاغته اللفظية التى تتجلى فى نظامه الصوتى ، وسلاسته اللغوية . .

- وبلاغته فى اختيار الحروف والمقاطع والكلمات المعبرة .

- جودة سبكه ، وإحكام سرده ، ووحدة مواضيعه في تنوعها وكأنها سبيكة واحدة تأخذ بالألباب .

- جمعه بين الإجمال والبيان ، ووضع كل شيء فى المكان المناسب ، ولذا فليس فيه تكرار ، وإذا أمعنا النظر فى تكرار قصة أو موضوع نجد فائدة جديدة فى ثنايا الإعادة ، تناسب المقام والمقال .

- إرضاؤه للعقل والعاطفة ، والجمع بين الحق والجمال فى اتزان .

- براعته فى تصريف القول ، وإيراد المعنى فى ألفاظ مختلفة وطرق شتى .

- التنزه عن الرتابة ، والوفاء بالمعنى مع القصد فى اللفظ .

- إرضاؤه العامة والخاصة . . مهما اختلفت مداركهم - فيحس الجميع بجلاله وروعته وجماله .

- ومن هنا كانت عناية العلامة ابن القيم بين اللفظ وتحليله ، والحرف ونظمه ، والكلمة وموقعها ، واختيار الحروف وبيان موقعها ومدرجها الصوتى؛ ليجئ النظم باهراً ، والتوزيع فى نظام موسيقى رائع .

❊ ❊

● التفسير والتأويل :

التفسير لغة : الإيضاح ، والتبيان ، والكشف ، ومنه قوله تعالى :

﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ (١) .

---

(١) الفرقان ٣٣

واصطلاحًا : هو المبين لألفاظ القرآن الكريم ، ومفهومها .

أو هو علم يبحث عن مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية .

والتأويل : لغة مأخوذ من الأول (بسكون الواو) ، وهو الرجوع .

والفرق بينهما : قيل هما مترادفان بمعنى واحد . وقيل : التفسير أعمّ من التأويل ، ويستعمل التفسير فى الألفاظ ، والتأويل فى المعانى ، أو التفسير - بمعنى الكشف والبيان يرجع إلى الرواية ، والتأويل يرجع إلى الدراية ، وملحوظ فيه ترجيح أحد محتملات اللفظ بالدليل بمعرفة أساليب اللغة ومفرداتها .

والتأويل - عند المتأخرين : هو صرف اللفظ عن المعنى الراجح ، إلى المعنى المرجوح ؛ لدليل يقترن به .

*** مصادر التفسير** :

مصادر التفسير هى : القرآن الكريم ، والسنة النبوية الشريفة ، والنقل عن الصحابة والتابعين ، والأخذ بمطلق اللغة للعليم بها ، ومعانى الكلام .

● تقديم بين يدى التفسير :

أذكر هنا فى عجالة معنى : علم التفسير ، وبعض أنواعه ، ولماذا دخلت الإسرائيليات بعضها ، وغرض المفسر ، وما هو واضح جلى فى القرآن الكريم - وما يحتاج إلى علم المتخصصين ؛ لأن القرآن لم يفسر أول الأمر كاملا بعد نزوله ، وإنما كانت أسئلة إذا غمض شىء ، والباقى إذا فهمه العرب من لغتهم فيكفيهم ، وبقى فى القرآن إشارات لأزمان لاحقة تنكشف على يديهم بعلمهم الحديث ، وما استأثر الله تعالى به ، نفوض فيه إلى الله ، لأن القرآن عطاء لكل القرون . . وبهذا التقديم نفهم مكانة ابن القيم ، ومن سبقه ومن جاء بعده .

* *

* التفسير علم يبحث عن بيان معانى القرآن الكريم ، وما يستفاد منه باختصار أو توسع .

وابتدأ اشتغال علماء المسلمين به قبل الاشتغال بأى علم آخر ، فى عهد النبى ﷺ ، لأنه من علوم الأصول . . ومن العلوم المحمودة ، ويشتمل على بيان أصول التشريع وكلياته .

وكان علمًا ؛ لأن مباحثه تؤدى إلى استنباط علوم كثيرة ، وقواعد كلية .

يقول الإمام الغزالى - رحمه الله - العلوم المحمودة أربعة ، وهى :

(أ) الأصول ، وهى : القرآن ، والسنة ، والإجماع .

(ب) الفروع ، وهى : ما فهم من الأصول ، مثل الفقه ، وأحوال القلوب.

(جـ) والمقدمات : وهى : النحو ، واللغة .

(د) والمتممات ، وهى : تفسير القرآن ، والسُّنَّة ، والآثار ، والقراءات ، وأحوال الرجال .

* *

● من أنواع التفاسير :

التفاسير كثيرة : منها السلفى أو المأثور ، والتفسير بالرأى ، والأحكام ، والبلاغى ، والإشارى ، والعلمى . . إلخ .

(أ) التفسير السلفى : بمعنى ما أثر عن السلف الصالح ، مثل تفسير مالك ابن أنس ، والطبرى ، وابن كثير ، والذودى تلميذ السيوطى . . . رحمهم الله تعالى .

والمراد بالسَّلَف الصالح من عاشوا فى القرون الثلاثة الأولى ، من أهل الفضل والعلم والتقى ، ومن تبعهم بإحسان ، وحظ تفسير شيخ الإسلام ابن تيمية ، وتلميذه ابن القيم فى هذا النوع كبير وعظيم ، ولهما إسهام بالتفسير بالرأى عن علم وبصيرة لبصرهما بعلوم اللغة العربية وبلاغتها .

(ب) **والتفسير بالرأى** : وهى تفاسير من سلك مسلك الرأى والنظر ، مثل تفسير الزجاج ، وأبى على الفارسى ، وقد دخلت الإسرائيليات فى تفاسيرهم [1] . . حتى أتى الزمخشرى ، فنقاها من الإسرائيليات فى « كشافه » .

وابن عطية فى تفسيره « المحرر الوجيز » ، ومن حذا حذوهم . . إلا أن البلاغة غلبت فى كشاف الزمخشرى .

(جـ) **وتفسير الأحكام والتشريع والفقه** : عند عبد الحق بن عطية ، فى « المحرر الوجيز » . . رحمهم الله وجزاهم عنَّا خير الجزاء .

(د) **والتفاسير العلمية** : مثل تفسير الشيخ طنطاوى رحمه الله ، ومن حذا حذوه ، ولنأخذ حذرنا من هذه التفاسير ؛ لأن العلم كل يوم يأتى بجديد ، ونظرياته لا يستقر لها قرار ، وكشوفه لا تنتهى .

وشروط المفسر : صحة الاعتقاد ، والتجرد عن الهوى ، ومراعاة التفسير السَّلَفى ؛ لأن أصحابه أعلم بمراد الشريعة ، وبأقوال النبى ﷺ وصحابته وتابعيهم ،

---

(١) أظن أن السبب فى دخول الإسرائيليات فى التفسير : هى محنة المسلمين فى هجوم المغول على البلاد الإسلامية ، وإلقاء المكتبة النادرة فى بغداد إلى النهر ، وفرار علماء المسلمين إلى مصر بدون كتبهم ، وصادف ذلك أيضًا محنة المسلمين فى بلاد الأندلس ، بعد أن نشروا الحضارة والإنسانية فى أوروبا وأسبانيا ، ففر العلماء والحكماء والأدباء إلى المغرب أو إلى مصر . . وصار العلماء يؤلفون ما عرفوه ويعيدون ما خلفوه بدون مراجع مهمة وميسورة كالتى كانت فى مكتبةبغداد والأندلس . . واعتمدوا على الذاكرة والمحفوظ والمسموع ، فاستعان بعضهم بما وجد وما سمع من علماء بنى إسرائيل . . فدخل فى بعض التفسير إسرائيلياتهم ، وما احتوته كتبهم .

والمسلمون اليوم بحاجة إلى نهضة قوية وشاملة لغربلة كل ذلك ، لحفظ التراث وتنقيته وتجليته . . . وليظهر الوجه المشرق السليم والصحيح والمشرف لذخائر المسلمين والعرب .

ولم ترح سوق الآداب واللُّغة وعلومها وقتذاك ؛ لأن الشعوب الإسلامية كانت وقتئذ فى ظلام وتأخر . . وحكامها معظمهم من الأعاجم

والعلم بأصول العلوم المتصلة بالقرآن ، ودقة الفهم ، وسعة الإطلاع ، والتبحر فى العربية . . ولابن القيم حظ كبير فى ذلك .

(هـ) **وهناك تفاسير يجب أن تجتنب ويحذر منها ، مثل :**

تفاسير أهل الباطن ، والتفسير بالرمز والإشارة ، وما فيه لبس وعدم فهم ، مثل : تفسير القلب بفرعون ، وأن الأعراف (مقر أهل المعارف) ، ومثل : (لا تدخل الملائكة بيتًا فيه كلب ولا صورة) : بأن البيت هو القلب ، والكلب والصورة : هى الصفات الرديئة كالغضب والشهوة ، والحسد والحقد والعجب وكلها كلاب نابحة . . .

وكل ذلك - لا شك - يؤدى إلى اللبس ، فتركه أولى وأفضل ؛ لأن كل الناس ليسوا أذكياء ، وما ذكر يوقع فى لبس ، وتقعر لا طائل تحته .

* *

● **هل التفسير علم ؟ :**

نعم هو علم ؛ لأنه يشتمل على علوم كثيرة وقواعد كلية : فللقرآن إشارات إلى الحكم والعلوم ، فلا بأس بأن يفسر بها إعلاء لشأن القرآن الكريم .

ويذكر صاحب تفسير (التحرير والتنوير) : أن علاقة العلوم بالقرآن على أربع مراتب :

(أ) علوم تضمنها القرآن ، كأخبار الأنبياء والأمم السابقين ، وتهذيب الأخلاق ، والفقه ، والاعتقاد ، والتشريع ، والأصول ، والعربية وعلومها .

(ب) علوم تزيد المفسر علمًا : كالحكمة ، والهيأة ، وخواص المخلوقات .

(جـ) علوم أشار إليها أو جاءت مؤيدة له ، كعلم طبقات الأرض ، والطب والمنطق .

(د) علوم لا علاقة لها به ؛ إمّا لبطلانها : كالزجر والعيافة والميثولوچيا

(كالتطيّر والتشاؤم والتنجيم والخرافات والأساطير) ، وإما لأنها لا تعين على خدمته كعلم العروض والقوافى .

❊ ❊

● غرض المفسر :

غرض المفسر للقرآن الكريم فى إيجاز هو :

إصلاح الاعتقاد ، والتعليم الصحيح ، وبيان التشريع ، وتهذيب الأخلاق ، وسياسة الأُمم ، وقصص الأنبياء السابقين - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - وأممهم ؛ للتأسى وأخذ العبرة ، والتعليم بما يناسب حال الأُمم فى أزمانها ، وللوعظ والإنذار والتبشير ، وبيان الإعجاز ؛ لإثبات صدق الرسول والرسالة .

❊ ❊

● إشارات القرآن إلى الحكم والعلوم :

أشار القرآن الكريم إلى الحكم والعلوم ؛ لفتًا للنظر ، وحثًّا على التقدم والبحث العلمى الدينى والمدنى ، لما فيه خير البشرية ورقي الحياة والأحياء . . . مثل :

﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ * وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴾ (١) ، ﴿ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ (٢) ، وفى الاقتصاد آية الدين والرهن (٣) ، وقوله تعالى : ﴿ كَيْلا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ﴾ (٤) ، والجاذبية واختلالها : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ . . ﴾ (٥) ، وقضية خلق الإنسان (٦) ، وأحكام سليمان وداود عليهما السلام (٧) ، وقصة موسى مع

---

(١) الذاريات : ٤٧ ، ٤٨ (٢) البقرة : ٢٦٩ (٣) البقرة : ٢٨٢ ، ٢٨٣
(٤) الحشر : ٧ (٥) التكوير : ١ - ٧ (٦) المؤمنون : ١٢ - ١٦
(٧) الأنبياء : ٧٨ ، ٧٩

الخضر عليهما السلام [١] ، والسماء والأفلاك [٢] ، وطبقات الجو [٣] ، وخلق الجنين [٤] ، ومبدأ خلق السموات والأرض [٥] . .

وبعض المفسرين منع ذلك ، وبعضهم بالغ ، وبعضهم توسط .

يقول رحمه الله :

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمَواقِعِ النُّجُومِ * وإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِى كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ * تَنْزِيلٌ مِّنْ رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [٦] ، ذكر سبحانه هذا القسم عقيب ذكر القيامة الكبرى ، وأقسام الخلق فيها ، ثم ذكر الأدلة القاطعة على قدرته ، وعلى المعاد بالنشأة الأولى ، وإخراج النبات من الأرض ، وإنزال الماء من السماء ، وخلق النار ، ثم ذكر بعد ذلك أحوال الناس فى القيامة الصغرى عند مفارقة الروح للبدن ، وأقسم بمواقع النجوم على ثبوت القرآن ، وأنه تنزيله .

* *

● مواقع النجوم :

وقد اختلف فى النجوم التى أقسم بمواقعها ، فقيل : هى آيات القرآن ، ومواقعها : نزولها شيئًا بعد شيء . . وهذا قول ابن عباس رضى الله عنهما ، فى رواية عطاء ، وقول سعيد بن جبير ، والكلبى ، ومقاتل ، وقتادة .

وقيل : النجوم هى الكواكب ، ومواقعها : مساقطها عند غروبها . . هذا قول أبى عبيدة وغيره .

وقيل : مواقعها انتشارها وانكدارها يوم القيامة ، وهذا قول الحسن ، ومن حجة هذا القول أن لفظ مواقع تقتضيه ؛ فإنه مفاعل من الوقوع ، وهو

---

(١) الكهف : ٦٠ - ٨٢ (٢) فصلت : ٩ - ١٢ (٣) الأنعام : ١٢٥

(٤) العلق : ٢ ، والطارق : ٥ - ٧ (٥) الملك : ٣ - ٥ (٦) الواقعة : ٧٥ - ٨٠

السقوط ؛ فلكل نجم موقع وجمعها مواقع . . ومن حجة قول من قال هى مساقطها عند الغروب ؛ أن الرب تعالى يقسم بالنجوم وطلوعها وجريانها وغروبها ؛ إذ فيها وفى أحوالها لثلاث آية وعبرة ودلالة كما تقدم فى قوله تعالى : ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ﴾ (١) ، وقال تعالى : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ﴾ (٢) ، وقال تعالى : ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ﴾ (٣) ، ويرجح هذا القول أيضًا أن النجوم حيث وقعت فى القرآن : فالمراد منها الكواكب ، كقوله تعالى : ﴿ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴾ (٤) ، وقوله تعالى : ﴿ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ . . . . ﴾ (٥) .

* *

● **النجوم والقرآن :**

وعلى هذا ، فتكون المناسبة بين ذكر النجوم فى القسم ، وبين المقسم عليه ، وهو القرآن من وجوه :

* أن النجوم جعلها الله يهتدى بها فى ظلمات البر والبحر ، وآيات القرآن يهتدى بها فى ظلمات الجهل والغى : فتلك هداية فى الظلمات الحسية ، وآيات القرآن فى الظلمات المعنوية . فجمع بين الهدايتين .

* مع ما فى النجوم من الرجوم للشياطين ، وفى آيات القرآن من رجوم شياطين الإنس والجن .

* والنجوم آياته المشهودة المعاينة ، والقرآن آياته المتلوة السمعية .

* مع ما فى مواقعها عند الغروب من العبرة والدلالة على آياته القرآنية ومواقعها عند النزول .

---

(١) التكوير : ١٥ ، ١٦ (٢) النجم : ١ (٣) المعارج : ٤٠
(٤) الطور : ٤٩ (٥) الأعراف : ٥٤

* ومن قرأ (بموقع النجوم) على الإفراد ، فلدلالة الواحد المضاف إلى الجمع على التعدد ، والمواقع اسم جنس ، والمصادر إذا اختلفت جمعت ، وإذا كان النوع واحدًا أفردت ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ أَنْكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ (١) فجمع الأصوات لتعدد النوع ، وأفرد صوت الحمير لوحدته ، فإفراد موقع النجوم لوحدة المضاف إليه ، وتعدد المواقع لتعدده ؛ إذ لكل نجم موقع .

* *

● المقسم عليه وسر الاعتراض هنا :

والمقسم عليه ههنا قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾ ووقع الاعتراض بين القسم وجوابه بقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ ووقع الاعتراض بين الصفة والموصوف فى جملة هذا الاعتراض بقوله تعالى :

﴿ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ فجاء هذا الاعتراض فى ضمن هذا الاعتراض ، ألطف شيء وأحسنه موقعًا .

وأحسن ما يقع هذا الاعتراض إذا تضمن : تأكيدًا ، أو تنبيهًا ، أو احترازًا ، كقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾(٢) ، فاعترض بين المبتدأ والخبر بقوله : ﴿ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَا وُسْعَهَا ﴾ لما تضمنه ذلك من الاحتراز الدافع لتوهم متوهم : أن الوعد إنما يستحقه من أتى بجميع الصالحات ، فرفع ذلك بقوله : ﴿ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ .

وهذا أحسن من قول من قال : أنه خبر عن الذين آمنوا ، ثم أخبر عنهم بخبر آخر ، فهما خبران عن مخبر واحد ، فإن عدم التكليف فوق الوسع لا يخص الذين آمنوا ، بل هو حكم شامل فلجميع الخلق ، مع ما فى هذا التقدير من إخلاء الخبر عن الرابط وتقدير صفة محذوفة أى نفسًا منهم ، وتعطيل هذه الفائدة الجليلة .

* *

---

(١) لقمان : ١٩ (٢) الأعراف : ٤٢

● أغراض الاعتراض البلاغية :

ومن ألطف الاعتراض وأحسنه ، قوله تعالى : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لله البَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَّا يَشْتَهُونَ ﴾ (١) ، فاعترض بقوله (سبحانه) بين الجعلين (٢) .

وفوائد الاعتراض تختلف بحسب قصد المتكلم وسياق الكلام : من قصد الاعتناء والتقرير ، والتوكيد ، وتعظيم المقسم به ، والمخبر عنه ، ورفع توهم خلاف المراد ، والجواب عن سؤال مقدر وغير ذلك . . .

فمن الاعتراض الذى يقصد به التقرير والتوكيد قول الشاعر :

لو أن الباخلين - وأنت منهم - رأوك تعلموا منك المطـــــالا

* ومما يقصد به الجواب عن سؤال مقدر قول الآخر :

فلا هجره يبدو - وفى اليأس راحة - ولا وصلـــه يصفو لنا فنكارمـــه

فقوله : وفى اليأس راحة ، جواب لتقدير سؤال سائل ، وما يغنى عنك هجره ؟ ، فقال : وفى اليأس راحة ، أى المطلوب أحد أمرين : إما يأس مريح ، أو وصال صاف .

* ومن اعتراض الاحتراز قول الجعدى :

ألا زعمت بنو جعـــــد بأنى - وقد كذبوا - كبير السن فانى

ومنه قول نصيب :

فكدت - ولم أخلق من الطير - إن بدا ســـنا بارق نحو الحجاز أطيـــر

فقوله : ولم أخلق من الطير ، لرفع استفهام يتوجه عليه على سبيل الإنكار لو قال : فكدت أطير ؛ فيقال له : وهل خلقت من الطير ، فاحترز بهذا الاعتراض .

وعندى أن هذا الاعتراض يفيد غير هذا ، وهو قوة شوقه ونزوعه إلى أرض الحجاز ، فأخبر أنه كاد يطير ، على أنه أبعد شىء من الطيران ، فإنه

---

(١) النحل : ٥٧ (٢) جعل الله سبحانه وجعلهم .

لم يخلق من الطير ، ولا عجب طيران من خلق من الطير وإنما العجب طيران من لم يخلق من الطير لشدة نزوعه وشوقه إلي جهة محبوبه فتأمله .

* ومن مواقع الاعتراض الاعتراض بالدعاء كقول الشاعر :

قـد كنت أبكى وأنت راضيـة ... حـذار هذا الصدود والغضـب

إن تم ذا الهجـر يا ظلوم - ولا ... تم - فما لى فى العيش من أرب

وقول الآخر :

إن سليمى - والله يكلؤها - ... ضنت بشىء ما كان يرزؤها

وقول الآخر :

إن الثمـانين - وبلغتهـا - ... قد أحوجت سمعى إلى ترجمان

* ومنه الاعتراض بالقسم ، كقوله :

ذاك الذى - وأبيك - يعرف مالكًا ... والحـق يدفع ترهات الباطل

* ومن اعتراض الاستعطاف قوله :

فمـن لى بعين التى كنت مرة ... إلى بها - نفسى فداؤك - تنظر

فاعترض بقوله : نفسى فداؤك ، استعطافًا .

* فتأمل حسن الاعتراض وجزالته فى قول الرب تعالى : ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ - واللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ - قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ ﴾ (١) ، فقوله تعالى : ﴿ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ﴾ اعتراض بين الشرط وجوابه أفاد أمورًا :

منها الجواب عن سؤال سائل : ما حكمة هذا التبديل وما فائدته . ومنها أن الذى بدل وأتى بغيره منزل محكم نزوله قبل الإخبار بقولهم . ومنها أن

---

(١) النحل : ١٠١

مصدر الأمرين عن علمه تبارك وتعالى وأن كلا منهما منزل فيجب التسليم ، والإيمان بالأول والثانى .

* ومن الاعتراض الذى هو فى أعلى درجات الحسن قوله تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإنسَانَ بِوَالِدَيْهِ - حَمَلَتْه أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِى عَامَيْنِ - أَنِ اشْكُرْ لِى وَلِوَالِدَيْكَ ﴾ (١) ، فاعترض بذكر شأن حمله ووضعه بين الوصية والموصى به ، توكيدًا لأمر الوصية بالوالدة التى هذا شأنها ، وتذكيرًا لولدها بحقها ، وما قاسته من حمله ووضعه مما لم يتكلفه الأب ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ * فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ﴾ (٢) فاعترض بقوله : ﴿ وَاللهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ بين الجمل المعطوف بعضها على بعض ، إعلامًا بأن تدارؤهم وتدافعهم فى شأن القتيل ليس نافعًا لهم فى كتمانه : فالله يظهره ولا بد .

ولا تستطل هذا الفصل وأمثاله ؛ فإنه يعطيك ميزانًا ، وينهج لك طريقًا يعينك على فهم الكتاب ، والله المستعان .

* *

● وصف القرآن الكريم :

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾ ، فوصفه بما يقتضى حسنه ، وكثرة خيره ، ومنافعه ، وجلالته ، فإن الكريم هو البهى الكثير الخير العظيم النفع ، وهو من كل شىء أحسنه وأفضله ، والله سبحانه وصف نفسه بالكرم ، ووصف به كلامه ، ووصف به عرشه ، ووصف به ما كثر خيره ، وحسن منظره من النبات ، وغيره ،

ولذلك فسر السَّلَفُ الكريمُ القرآنَ بالحُسن ، قال الكلبى : إنه لقرآن كريم ، أى حسن كريم على الله ، وقال مقاتل : كرمه الله وأعزه ؛ لأنه كلامه ، وقال

---

(١) لقمان : ١٤ (٢) البقرة : ٧٢

الأزهرى : الكريم اسم جامع لما يحمد ، والله كريم جميل الفعال ، وإنه لقرآن كريم يحمد ، لما فيه من الهدى والبيان والعلم والحكمة .

وبالجملة فالكريم الذى من شأنه أنه يعطى الخير الكثير بسهولة ويسر . وضده اللئيم الذى لا يخرج خيره النزر إلا بعسر وصعوبة ، وكذلك الكريم فى الناس واللئيم .

* *

● **الكتاب المكنون :**

ثم قال تعالى : ﴿ فِى كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴾ اختلف المفسرون فى هذا ، فقيل : هو اللوح المحفوظ ، والصحيح أنه الكتاب الذى بأيدى الملائكة ، وهو المذكور فى قوله تعالى : ﴿ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ * مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِى سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ (١) ويدل على أنه الكتاب الذى بأيدى الملائكة قوله تعالى : ﴿ لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ فهذا يدل على أنه بأيديهم يمسونه ، وهذا هو الصحيح فى معنى الآية ، ومن المفسرين من قال : إن المراد به أن المصحف لا يمسه إلا طاهر .

والأول أرجح لوجوه :

(أحدها) : أن الآية سيقت تنزيهًا للقرآن أن تنزل به الشياطين ، وأن محله لا يصل إليه فيمسه إلا المطهرون ، فيستحيل على أخابث خلق الله وانجسهم أن يصلوا إليه أو يمسوه ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ * وَمَا يَنبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ (٢) ، فنفى الفعل وتأتيه منهم وقدرتهم عليه ، فما فعلوا ذلك ولا يليق بهم ، ولا يقدرون عليه ، فإن الفعل قد ينتفى عمن يحسن منه ، وقد يليق بمن لا يقدر عليه ، فنفى عنهم الأمور الثلاثة ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ * مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِى سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾(٣)

(١، ٣) عبس : ١٣ - ١٦ (٢) الشعراء : ٢١٠ - ٢١١

فوصف محله بهذه الصفات بيانًا أن الشيطان لا يمكنه أن يتنزل به ، وتقرير هذا المعنى أهم وأجل وأنفع من بيان كون المصحف لا يمسه إلا طاهر .

(الوجه الثانى) : أن السورة مكية ، والاعتناء فى السور المكية إنما هو بأصول الدين ، من تقرير التوحيد والمعاد والنبوة ، وأما تقرير الأحكام والشرائع فمظنة السور المدنية .

(الثالث) : أن القرآن لم يكن فى مصحف عند نزول هذه الآية ، ولا فى حياة رسول الله ﷺ ، وإنما جمع فى المصحف فى خلافة أبى بكر ، وهذا وإن جاز أن يكون باعتبار ما يأتى ، فالظاهر أنه إخبار بالواقع حال الإخبار يوضحه .

(الوجه الرابع) : وهو قوله تعالى : ﴿ فِى كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴾ والمكنون المصون المستور عن الأعين الذى لا تناله أيدى البشر ، كما قال الله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ (١) ، وهكذا قال السلف . قال الكلبى : مكنون من الشياطين ، وقال مقاتل : مستور ، وقال مجاهد : لا يصيبه تراب ولا غبار . وقال أبو إسحق : مصون فى السماء يوضحه .

(الوجه الخامس) : أن وصفه بكونه مكنونًا نظير وصفه بكونه محفوظًا فقوله تعالى : ﴿ قُرْآنٌ كَرِيمٌ فِى كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ * فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ (٢) يوضحه .

(الوجه السادس) : أن هذا أبلغ فى الرد على المكذبين ، وأبلغ فى تعظيم القرآن ، من كون المصحف لا يمسه محدث .

(الوجه السابع) : قوله تعالى : ﴿ لا يَمَسُّهُ إلا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ بالرفع فهذا خبر لفظًا ومعنى ، ولو كان نهيًا لكان مفتوحًا ، ومن حمل الآية على النهى احتاج إلى صرف الخبر عن ظاهره ، إلى معنى النهى ، والأصل فى الخبر والنهى

---

(١) الصافات : ٤٩ (٢) البروج : ٢٢

حمل كل منهما على حقيقته ، وليس ههنا موجب يوجب صرف الكلام عن الخبر إلى النهى .

(الوجه الثامن) : أنه قال تعالى : ﴿ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ ، ولم يقل إلا المتطهرون .

ولو أراد به منع المحدث من مسه لقال إلا المتطهرون . كما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ (١) ، وفى الحديث : « اللَّهُمَّ اجعلنى من التوابين واجعلنى من المتطهرين »(٢) ، فالمتطهر فاعل التطهير ، والمطهر الذى طهره غيره ، فالمتوضئ متطهر ، والملائكة مطهرون .

(الوجه التاسع) : أنه لو أريد به المصحف الذى بأيدينا لم يكن فى الإخبار عن كونه مكنونًا كبير فائدة ، إذ مجرد كون الكلام مكنونًا فى كتاب ، لا يستلزم ثبوته ، فكيف يمدح القرآن بكونه مكنونًا فى كتاب ، وهذا أمر مشترك ، والآية إنما سيقت لبيان مدحه وتشريفه ، وما اختص به من الخصائص ، التى تدل على أنه منزل من عند الله ، وأنه محفوظ مصون ، لا يصل إليه شيطان بوجه ما ، ولا يمس محله إلا المطهرون ، وهم السفرة الكرام البررة .

(الوجه العاشر) : ما رواه سعيد بن منصور فى سننه حدثنا أبو الأحوص ، حدثنا عاصم الأحول ، عن أنس بن مالك ، فى قوله تعالى : ﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ قال : المطهرون الملائكة . . وهذا عند طائفة من أهل الحديث فى حكم المرفوع ، وقال الحاكم : تفسير الصحابة عندنا فى حكم

---

(١) البقرة : ٢٢٢

(٢) رواه الترمذى عن أبى إدريس الخولانى ، عن عمر ، عن النبى ﷺ قال : « من توضأ فأحسن الوضوء ، ثم قال : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ، اللهم اجعلنى من التوابين واجعلنى من المتطهرين ، فتحت له ثمانية أبواب الجنة ، يدخل من أيها شاء » ، قال الترمذى : وهذا حديث فى إسناده اضطراب ، ولا يصح عن النبى ﷺ فى هذا الباب كثير شىء ، قال البخارى : أبو إدريس لم يسمع من عمر شيئًا أ هـ .

المرفوع ، ومن لم يجعله مرفوعًا فلا ريب أنه عنده أصح من تفسير من بعد الصحابة ، **والصحابة أعلم الأمة بتفسير القرآن** . ويجب الرجوع إلى تفسيرهم ، وقال حرب فى مسائله : سمعت إسحق فى قوله : ﴿ لا يَمَسُّهُ إلا المُطَهَّرُونَ ﴾ قال : النسخة التى فى السماء لا يمسها إلا المطهرون ، قال : الملائكة .

وسمعت شيخ الإسلام [1] يقرر الاستدلال بالآية على أن المصحف لا يمسه المحدث بوجه آخر ، فقال : هذا من باب التنبيه والإشارة ، إذا كانت الصحف التى فى السماء لا يمسها إلا المطهرون ، فكذلك الصحف التى بأيدينا من القرآن لا ينبغى أن يمسها إلا طاهر ، والحديث مشتق من هذه الآية .

وقوله : « لا تمس القرآن إلا وأنت طاهر » رواه أهل السنن من حديث الزهرى ، عن بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ، عن أبيه ، عن جده ، أن فى الكتاب الذى كتبه النبى ﷺ إلى أهل اليمن فى السنن ، والفرائض ، والديات : « أن لا يمس القرآن إلا طاهر » ، قال أحمد : أرجو أن يكون صحيحًا ، وقال أيضًا : لا أشك أن رسول الله ﷺ كتبه ، وقال أبو عمر بن عبد البر : هو كتاب مشهور عند أهل السير ، معروف عند أهل العلم . معرفة يستغنى بشهرتها عن الإسناد ؛ لأنه أشبه التواتر فى مجيئه ، لتلقى الناس له بالقبول والمعرفة ، ثم قال : وهو كتاب معروف عند العلماء وما فيه فمتفق عليه إلا قليلاً ، وقد رواه بن حبان فى صحيحه ، ومالك فى موطئه ، وفى المسألة آثار أخر مذكورة فى غير هذا الموضع .

* *

● القلوب الطاهرة تفهم القرآن ويلامسها ، وغير الطاهرة بعيدة عن ذلك :

ودلت الآية بإشارتها وإيمائها على أنه لا يدرك معانيه ولا يفهمه إلا القلوب الطاهرة ، وحرام على القلب المتلوث ، بنجاسة البدع والمخالفات أن ينال معانيه وأن يفهمه كما ينبغى ، قال البخارى فى صحيحه فى هذه الآية :

---

(١) ابن تيمية شيخه .

لا يجد طعمه إلا من آمن به ، وهذا أيضًا من إشارة الآية وتنبيهها :

وهو أنه لا يلتذ به وبقراءته ، وفهمه وتدبره إلا من شهد أنه كلام الله ، تكلم بها حقًا ، وأنزله على رسوله وحيا .

ولا ينال معانيه إلا من لم يكن فى قلبه حرج منه بوجه من الوجوه :

فمن لم يؤمن بأنه حق من عند الله ففى قلبه منه حرج ، ومن لم يؤمن بأن الله سبحانه تكلم به وحيا **وليس مخلوقًا من جملة مخلوقاته** ، ففى قلبه منه حرج .

ومن قال : إن له باطنًا يخالف ظاهره ، وإن له تأويلاً يخالف ما يفهم منه ، ففى قلبه منه حرج .

ومن قال : إن له تأويلاً لا نفهمه ولا نعلمه ، وإنما نتلوه متعبدين بألفاظه ، ففى قلبه منه حرج .

ومن سلط عليه آل الآرائيين ، وهذيان المتكلمين (١) ، وسفسطة المسفسطين (٢) ، وخيالات المتصوفين (٣) ، ففى قلبه منه حرج .

ومن جعله تابعًا لنحلته ومذهبه ، وقول من قلده دينه ، ينزله على أقواله ، ويتكلف حمله عليها ، ففى قلبه منه حرج .

ومن لم يحكمه ظاهرًا وباطنًا فى أصول الدين وفروعه ، ويسلم وينقاد لحكمه أين كان ، ففى قلبه منه حرج .

ومن لم يأتمر بأوامره ، وينزجر عن زواجره ، ويصدق جميع أخباره ، ويحكم أمره ونهيه وخبره ، ويرد له كل أمر ونهى وخبر خالفه . ففى قلبه منه حرج .

---

(١) الآرائيين : أصحاب الآراء الفاسدة ، والمتكلمين : أصحاب القول فى العقيدة بلا علم .

(٢) أباطيل المتفلسفين . (٣) المبالغين بلا حد معقول أو مقبول .

وكل هؤلاء لم تمس قلوبهم معانيه ، ولا يفهمونه كما ينبغى أن يفهم ، ولا يجدون من لذة حلاوته وطعمه ما وجده الصحابة ومن تبعهم .

* وأنت إذا تأملت قوله : ﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ وأعطيت الآية حقها من دلالة اللفظ وإيمائه وإشارته وتنبيهه ، وقياس الشىء على نظيره ، واعتباره بمشاكله وتأملت المشابهة التى عقدها الله سبحانه وربطها بين الظاهر والباطن - فهمت هذه المعانى كلها من الآية . . وبالله التوفيق .

* *

● **فائدة التأكيد والتقرير :**

ثم أكد ذلك وقرره وأطده بقوله تعالى : ﴿ تَنزِيلٌ مِّنْ رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ وكما أنه لازم لكونه قرآنًا كريمًا فى كتاب مكنون فهو ملزوم له ، فهو دليل عليه مدلول له .

* وأفاد كونه تنزيلاً من رب لعالمين مطلوبين عظيمين من أجلّ مطالب الدين :

(أحدهما) : أنه المتكلم ، وأنه منه نزل ، ومنه بدأ وهو الذى تكلم به . ومن هنا قال السَّلَف : منه بدأ ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَلَكِن حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّى ﴾ (١) وقوله تعالى : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ ﴾ (٢) .

(والثانى) : علو الله سبحانه فوق خلقه ، فإن النزول والتنزيل الذى تعقله العقول ، وتعرفه الفطر - هو وصول الشىء من أعلا إلى أسفل ، والرب تعالى إنما يخاطب عباده بما تعرفه فطرهم ، وتشهد به عقولهم ، وذكر التنزيل مضافًا إلى ربوبيته للعالمين استلزمة تملكه لهم ، وتصرفه فيهم ، وحكمه عليهم ، وإحسانه وإنعامه عليهم ، وأن من هذا شأنه مع الخلق كيف يليق به

---

(١) السجدة : ١٣ (٢) النحل : ١٠٢

مع ربوبيته التامة أن يتركهم سدى ، ويدعهم هملاً ، ويخلقهم عبثًا ، لا يأمرهم ولا ينهاهم ، ولا يثيبهم ولا يعاقبهم ؟؟ فمن أقر بأنه رب العالمين أقر بأن القرآن تنزيله على رسوله ، واستدل بكونه رب العالمين على ثبوت رسالة رسوله ، وصحة ما جاء به .

وهذا الاستدلال أقوى وأشرف من الاستدلال بالمعجزات والخوارق ، وإن كانت دلالتها أقرب إلى أذهان عموم الناس ، وتلك إنما تكون لخواص العقلاء .

وقد أشار سبحانه إلى الطريقين في غير موضع من كتابه . كقوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الآفَاقِ وَفِى أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ ﴾ (١) ، فهذا استدلال بالآيات المعاينة المخلوقة ، ثم قال سبحانه : ﴿ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (٢) فهذا استدلال بكمال ربوبيته وكمال أوصافه على صدق رسوله فيما جاء به ، وهذه الطريق أخص وأقوى وأكمل وأعلى ، والأول أعم وأشمل ، وقد تقدم بيانها عند قوله تعالى :

﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ ﴾ (٣) ، وأين الاستدلال بأوصاف الرب تعالى وكماله المقدس على ثبوت النبي وبعثه ، من الاستدلال عليه ببعض مخلوقاته ؟!

* وتأمل فرق ما بين استدلال سيدة نساء العالمين خديجة رضى الله عنها بصفات الرب تعالى ، وصفات محمد ﷺ ، واستنتاجها من بين هذين الأمرين صحة نبوته ، وأنه رسول الله حقًا ، وأن من كانت هذه صفات ربه ، وخالقه تأبى أن يخزيه ، وأنه يؤيده ، ويعليه ، ويتم نعمته عليه (٤) .

(١ ، ٢) فصلت : ٥٣ (٣) الحاقة : ٤٤ .

(٤) روى البخارى فى بدء الوحى من حديث عائشة رضى الله تعالى عنها : فرجع بها ﷺ يرجف ، فدخل على خديجة بنت خويلد رضى الله عنها ، فقال : « زملونى زملونى » فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، فقال لخديجة - وأخبرها الخبر - « لقد خشيت على نفسى » ، فقالت : كلا والله ما يخزيك الله أبدًا ؛ إنك لتصل الرحم وتحمل الكَلَّ ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق .

* وأنت إذا تأملت هذه الطريقة وهذا الاستدلال وجدت بينها وبين طريقة المتكلمين من الفرق ما لا يخفى . وإذا حصل للعبد الفقه فى **الأسماء والصفات** انتفع به فى باب معرفة الحق والباطل من الأقوال ، والطرائق والمذاهب والعقائد - أعظم انتفاع ، وأتمه ، وقد بينا فى كتابنا المعالم [1] بطلان التحيل وغيره من الحيل ، الربوبية من أسماء الرب وصفاته ، وأنه يستحيل على الحكيم أن يحرم الشىء ويتوعد على فعله بأعظم أنواع العقوبات، ثم يبيح التوصل إليه بنفسه بأنواع التحيلات ، فأين ذلك الوعد الشديد وجواز التوصل إليه بالطريق البعيد ؛ إذ ليست حكمة الرب تعالى ، وكمال علمه وأسمائه وصفاته ، تنتقض بإحالة ذلك وامتناعه عليه ، فهذا استدلال **بالفقه الأكبر** فى الأسماء والصفات على الفقه العملى فى باب الأمر والنهى . وهذا باب حرام على الجهمى المعطل أن يلجه إلى الجنة ، حرام عليه ريحها وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسين ألف سنة ، والله العزيز الوهاب لا مانع لما أعطى ، ولا معطى لما منع ، وبه التوفيق . أ هـ .

* * *

(١) كتاب « إعلام الموقعين » ، الذى لم يؤلف فى أصول الدين مثله ، ولم ينسج أحد على منواله .